يوم افتتاح المدارس

صور دمشقية سوداء

طبق الأصل . . .

للأستاذ على الطنطاوى

ذهبت أمس إلى المدرسة الأمينية [١] ، وهى المدرسة الاسلامية التى انحطمت على جدرانها ثمانية قرون وهى قائمة ، وماتت من حولها ثمانمائة سنة وهى حيّة ، ونشأت دول وانقرضت ، وبدئت تواريخ وختمت ، وتبدّلت الأرض وتغيرت ، وهى ماضية فى سبيلها ، عاكفة على عملها ، قد انقطعت عن الأرض من حولها ، واتصلت بالسماء من فوقها ، فعاشت فى سماء العلم والناس يعيشون فى أرض المادّة . . .

دخلتها فاذا هى صامتة ساكنة ، لا يسمع فى أبهائها صوت مدرّس يدرس ، أو دارسين يتلاوة ، وإذا فى كل فصل من فصولها رَهْط من التلاميذ ، متفرّقون فى زوايا الفصل ، لا تنفرج شفاههم عن بَسْمَة السرور ، ولا تلمع عيونهم ببريق الجذل ، وإذا الأستاذ صاحب المدرسة قابعٌ فى غرفته ، يفكّر حزيناً ، وينظر آسفاً ؛ وهو الذى لم يألُ العمل جهداً ، ولم يسئ بالله ظنّاً ؛ فلما رآنى قام إلىّ يحدّثنى عن المدرسة ، ويعلمنى علمها ، فاذا المدرسة قد زلزلت فى مطلع هذا العام المدرسىّ ، لأن الناس قد مالوا عن المدارس الاسلامية وزهدوا فيها ، وزاغوا إلى المدارس الأجنبية وأقبلوا عليها ، وضنّوا على مدارسنا بدينار واحد فى العام ، ليمنحوا تلك ثلاثة أرباع الدينار فى الشهر . .

وأفاض الأستاذ فى البيان ، حتى امتلأت نفسى حَزَناً ، فخرجت حزيناً فمررت على (الكاملية) [١] فاذا هى فى خطب أشدّ ، ومصيبة أفدح ، فجزت بـ (الجوهريّة) [٢] فاذا هى ماتت بعد شيخ الشام ، الشيخ عيد السفرجلانى ، وإذا فيها بنات يقرأن ويصحن ويلعبن ، فسلكت على (التجارية) [٣] فاذا دارها الكبيرة فى زقاق الفخر الرازى ، خلاء قواء ، وإذا هى قد انتقلت إلى الخيْضَريّة فاتخذت فيها دارا ، ورأيت (الجقمقية) [٤] القاعة التاريخية الجميلة ، والمدرسة الأثرية الجليلة ، فاذا هى قد اتخذت داراً . . .

فذهبت وأنا أحسّ الألم يقطع فى كبدى ، والأسى يحزّ فى قلبى ، ووددت لو أن الله قبضنى اليه قبل أن أرى مدارسنا الاسلامية ، لا تستطيع أن تعيش فى البلد الاسلامى ، ولا تجد من يشد أزرها ، ويأخذ بيدها . . . وأممت شارع بغداد ، أروّح عن نفسى بخضرة البساتين ، وجمال الكون ، وانطلاق الهواء ، ومنظر الجبل ، فما راعنى إلا أفواج من الناس قد ازدحمت على باب بناء كبير ، كأنه قلعة من القلاع ، أو قصر من القصور ، حتى لقد كادت تسدّ بكثرتها الشارع العريض : ما راعنى إلا الناس على باب (مدرسة اللاييك) ، يتدافعون

(١) قال أستاذنا العلامة محمد بك كرد على فى خطط الشام (٦ — ٧٧) : الأمينية : قبلى باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموى ، وهى شرقى المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح ، وكان به بابها (وبابها اليوم من سوق الحرير) وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب ، وهناك دار مسلمة بن عبد الملك ، قيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة رييع الاسلام أمين الدين كمشتكين بن عبد الله السفتكى المتوفى سنة ٥٤١ ، وقد بنيت المدرسة سنة ٥١٤ الخ . . . قلت : وجاء ذكرها فى ترجمة الغزالى فى طبقات السبكى لما زار دمشق ، ودرس بها ابن خلكان وغيره ، وكان لها شأن بين مدارس دمشق كبير

(١) قال فى خطط الشام (٦ — ٢٥) : هى التنكزية دار قرآن وحديث شرقى حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطة تنكز سنة ٧٣٠ . قلت : وسميت الكاملية الماشية لأن الأستاذ الجليل الشيخ كامل القصاب جدد بناءها وجعلها مدرسة ثانوية فكانت حيناً من أرقى مدارس دمشق

(٢) قال فى الخطط (٦ — ٩١) الجوهرية شرقى تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق الحكمة أنشأها الصدر نجم الدين بن عباس التميمى الجوهرى سنة ٦٧٦ ، وكان بعضهم أواخر القرن الماضى قسمها ثلاث دور الخ . . . قلت : وقد أعادها مدرسة وجدد بناءها الشيخ عيد السفرجلانى رحمه الله رحمة واسعة

(٣) مدرسة مستحدثة أسسها طائفة من تجار دمشق وكانت قبيل الحرب وأوائله أرقى مدرسة ثانوية فى دمشق

(٤) قال فى الخطط (٦ — ٩١) هى شمال الجامع الأموى أسسها سنجر الهلالى وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت فى غاية الحسن واحترقت فى فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقمان وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة الخ . . قلت : وفى هذه المدرسة تخرج أكثر رجال دمشق المعروفين اليوم على يد الشيخ عيد رحمه الله

ويتزاحمون ، كأنهم على باب الجنة ، فكل يطمع أن يسبق إليها ، وكلما فتح الباب لواحد ، لحظته العيون بالتميظ ، ورمقته بالحسد ... فسألت قوماً أعرفهم ينظرون كما أنظر ، ماذا هناك ؟ فقالوا : هم المسلمون يريدون أن يسلموا أبناءهم إلى رجال اللاييك ليصبوا فى قلوبهم ما يشاؤون من عقائد باطلة فى الدين ، وعواطف زائفة فى الوطنية ، وزهادة فى اللغة ، وكره للتاريخ الاسلامى ، والقومية العربية ، ويدفعون اليهم الأموال الطائلة ، وما يشترون بها إلا الكفر لأبنائهم ، والزيغ والالحاد ، وحبّ الغريب ، وبغض القريب ، وما يشترون بها إلا أعداء لهم ولأوطانهم ، يحاربونهم فى دورهم ، ويغزونهم فى أخلاقهم وعقائدهم ، وهم قد انحدروا من أصلابهم ، وخرجوا من ظهورهم ؛ أفرأيت بلاء أشدّ ، وخزياً أكبر ، من أن يحاربونا بأبنائنا ، ويأخذوا على ذلك أموالنا ؟ . . .

فقلت : لا والله ! وسرت ، أخشى أن يتمزق والله من الألم كبدى ، فمررت على (مدرسة الفرير) فاذا الجموع أكثر ، والازدحام أشدّ ، والمسلمون يرجون الحورى . . . أن يُنسى أبناءهم القرآن ، ليحفظهم الانجيل ، ويبغض إليهم محمداً وأبا بكر وعمر ، ويحبّب إليهم بطرس ولويس ونابليون . . . فسرت مسرعاً ، لا يطول بى وقوف فتحرقنى نار الحزن ، وأخذت طريق إلى مدرستى ، أسلك اليها شارع البرلمان ، فاذا على باب (مدرسة الفرنسيسكان) أمام الكنيسة الفخمة ، جمهور من المسلمين لا يحصيهم عدّ ، يأخذون بأيدى بناتهم ، ليدخلوهن إليها . . . فمدت أدراجى إلى شارع الصالحية فأخذت حافلة (الترامواى) إلى مدرستى فى حىّ المهاجرين ، فى لحف جبل قاسيون

* * *

ولم يستقرّ بى فى المدرسة مقام ، حتى أقبل علينا شيخ من مشايخ المسلمين ، على رأسه عمة بيضاء كأنها برج ، وحول يده كم كأنه خرج ، تتدلى منه سبحة لا يفتأ يعدّ حباتها ويلعب بها ، وقد يخطئ مرّة فيسبّح عليها ، يجرّ بيده ولداً ، فخذاه مكشوفان وعلى رأسه كُمّة [1] فقلت له :

ـ ما هذا ياشيخ ؟ أعورة من أعلى ، وعورة من أسفل ؟

ـ قال : وما ذاك ؟

ـ قلت : ألم يكفك أن تكشف عورته ، وأنت تذكر الله ، وتتلو كتابه ، وتظهر منه ما أمر الله بستره ، حتى تضمّ إلى العورة عورة أخرى تجىء من فوق رأسه ، فتلبسه القبعة ؟

ـ فقال (ولوى لسانه وتفيهق وتشدّق) : ما هى بعورة فى مذهبنا

ـ قلت : وما مذهبك يا مولانا ؟

ـ قال : مذهب الامام مالك

ـ قلت : ذاك لمن لا يفرّق بين عورة الملتحى وعورة الأمرد ، هذا الذى فى مذهب مالك ، لا مع مثل ابنك الذى لا تؤمن معه الفتنة

وإذا أنت فهمت مذهب مالك بهذا الفهم الأعوج ، أفليس فى الناس فسّاق ، يأكلون عرض ابنك على مذهب مالك ، ما دام مذهب مالك حجة يحتج بها كل ماجن وفاسق ... رحم الله مالكا وجعل افتراءكم عليه حسنات له

* * *

وتركته وقمت إلى قسم الشهادة الابتدائية ، أرى التلاميذ ... فاذا أكثرهم لا يستر إلا نصفه الأعلى ، وإذا هم متأنقون مائلون مميلون ، فجعلت أسألهم من هنا وهناك ، فقلت :

ـ ما شروط الصلاة ؟ من يعرفها منكم ؟

ـ قالوا : لا نعرفها ، درس الديانة ليس من دروس الامتحان فلا نحفظه

ـ قلت : فماذا قرأتم فى السنة الماضية ؟

ـ قالوا : وماذا نقرأ ، عندنا ساعة واحدة فى الأسبوع ...

ـ قلت : فلنبحث فى التاريخ ، من يحدثنا عن وقعة اليرموك ، أو القادسية ؟

ـ قالوا : ما قرأناها ... نحدثك عن سيرة نابليون ، ووقعة واترلو . . . هذا ما قرأناه وسنقرؤه فى هذا العام . . .

* * *

وبعد . . . فهذا طرف من الحقيقة ، وقليل من كثير من الواقع ، نسوقه بلا تعليق !

(دمشق) علي الطنطاوي

(١) الكمة هى (البريه) وهى جنس من القبعات فتن بها الناس عندنا فألبسوها أبناءهم فصار يهون عليهم إذا كبروا لبس القبعة ، فاذا لبسوها عرفوا لها حقها ، وما حقها إلا التفرنج ، وترك الشرقية بالكلية

٥٠٣٧